بعض مشاهداتي وانطباعاتي
عن الولايات المتحدة الامريكية[1]

بناء على الاتفاق بين وزارة المعارف والجهة الأمريكية وموافقة مجلس الوزراء ، تقرر سفري الى الولايات المتحدة الأمريكية ، للوقوف على أحوال الطلبة العراقيين ، فان فيها زهاء ٨٠٠ طالب يدرسون أنواع العلوم والفنون فى أقطار تلك المملكة ، زهاء نصفهم يدرس على نفقة الحكومة العراقية ، والباقون يدرسون على نفقتهم الخاصة ؛ كذلك للتعرّف على الجامعات والكليات والمدارس المهنية والمعاهد العلمية على اختلاف مراحلها ومقاصدها . وفى أثناء تجوالي فى تلك البلاد الواسعة الأرجاء ، لفتت نظري أمورٌ كثيرةٌ سأتطرق لبعضها فى هذا الحديث . على أن ما أودُّ أن أبينه سلفاً هو أن طبيعة منهاجي والغاية التي توخيتها من زيارتي ، جعلت مشاهداتي مقتصرة على أحسن ما فى تلك البلاد من مؤسسات ، ونشأت انطباعاتي عنها من محادثتي مع أرقى الطبقات المثقفة من رؤساء جامعات وعمداء كليات ومديري معارف وأساتذة ومديري مدارس وطلبة ، أي أن اطلاعي كان منحصراً فى النواحي العلمية والفنية ، تلك النواحي التي قامت عليها حضارةُ أمريكة وثقافتها ، وجعلتها مَراد طلاب العلم من أربع جهات المعمورة . (وإذا كانت للحياة الأمريكية ناحية مرحة ، فان الفرصة كانت ضيقة أمامي لمعرفتها ، والقليل الذي شاهدته منها عرضاً لا يسوّغ حديثي عنها حديث المجرب الخبير) .

تحركت من بغداد صباح اليوم الـ ٢٨ من نيسان ١٩٥٣ الى لندن ، فبلغتها مساء اليوم نفسه ، وبقيت فيها أربعة أيام زرت خلالها « باترسي بوليتكنك » ، وهي كلية اختصت بتدريس فروع الهندسة الصناعية يؤمها ٩٠٠ طالب نهاري و ١٨٠٠ طالب مسائي . ويدرس الطالب النهاري ثلاثين ساعة فى الأسبوع ، عشرةٌ منها دروس نظرية ، وعشرون للتدريب على « المكائن »

(١) محاضرة ألقيت في دار المجمع .

وإنجاز التجارب فى المختبرات ، وعميدُها ـ ويدعى الدكتور وست ـ رجل جمّ النشاط والذكاء ، وكان أهمُّ ما قاله لي إن طلاب الشرق الأوسط قلما يميلون الى النواحي العملية التطبيقية من العلم ، ولا يعجبهم أن يمرنوا أيديهم على العمل ؛ ونصح ألا يرسل أحد لدرس أيّ فرع كان من فروع الهندسة الصناعية ما لم يتدرب أولاً فى أحد المعامل ، كمعمل السكك الحديد فى بغداد أو معامل شركة النفط أو أيّ معمل آخر مدةً تتراوح من ثلاثة أشهر إلى ستة أشهر ، فذلك مما يجعله أكثر استعداداً لمجابهة الدراسة الفنية فى انكاترة وأقوى على فهمها ، ويشعره بلذة العمل وشرفه وأثره في انتاج الثروة ورفع المستوى الاقتصادي للبلاد ، وان قراءة الكتب وحفظ النظريات والقوانين العلمية لا تكفي وحدها لتكوين الإنسان العامل المنتج اذا لم يقرنها بإعمال الفكر وإحكام التطبيق العملي .

وفى مساء اليوم الثاني من مايس سافرت فى طائرة أمريكية مع خمسة وستين راكباً الى مدينة نيويورك ، فبلغناها سحر اليوم التالي . وهذه الطائرة كالطائرة السابقة قطعة رائعة من الفن الهندسي وحسن الذوق وكمال التنظيم . وقبل حركتها رحب بنا الربّان ، وقال : ستدلكم المضيّفة على كيفية استعمال قميص النجاة دفعاً لكل الاحتمالات . فقلت فى نفسي : إنه والله لفأل سيئ أن نفتتح سفرتنا عبر الأطلنطيك بمثل هذا . ونهضت المضيّفة ، فأفهمتنا كيفية استعمال القميص ، واعتذرت بأن القانون هو الذي يحتم ذلك ، وأكدت لنا أننا لن نضطر الى قطع الأطلنطيك سباحة الى أمريكة ! ولما حومت الطائرة فوق مدينة « نيويورك » ، كانت الغيوم تحتنا كأنها جبال من القطن المنفوش ، لا ثغرة فيها . ولكن الطائرة اخترقتها ، ونزلت فى المكان المعدّ لها وكأنها تهبط على أجنحة الملائكة . وكان المطار يعج بمئات الطائرات ما بين واقف وسائر وطائر ، فلا تكاد تمر دقيقة من الزمن دون أن تحط فيه طائرة أو تغادره أخرى . وأول ما يلفت نظر القادم من مظاهر الحضارة الأمريكية ، فخامة المباني وسموقها ، وكثرة السيارات وجنونها ، والقوة الصناعية الهائلة التي يظهر طابعها فى كل شيء وفى كل مكان .

بقيت فى « نيويورك » ثلاثة أيام ، زرت فيها البيت الأممي فى جامعة « كولومبيا » ، وقد انتشر فى أبهائه الطلاب والطالبات ، يتحدثون ويمرحون . وزرت بناية هيأة الأمم ، ومنظرها

من الخارج أشبه بعلبة كبريت ضخمة ، وقانا الله شرها وشرارها اذا التهبت الأفكار فيها . وكانت احدى الصور المنقوشة على أحد جدران القاعة العامة موضع حديث بيني وبين الأصدقاء الذين تكرموا بدعوتي اليها ، ذلك أنها كانت من النوع « السريالي » ، ويلوح لي أن « السرياليزم » فن من التصوير لايجيده الا مجانين الرسامين أو عباقرتهم ، وقد أحسنوا صنعاً بتصوير هذه اللوحة على جدار القاعة العامة التي يتمثل فيها جنون السياسة العالمية . والمشاهد لمثل هذه الصور أن يفسرها كما يروق خياله ، فقال أحدهم : إنها تمثل كُريات الدم في جسم الانسان التي تتبرى للدفاع اذا ما دخلت جرثومة في الجسم ، وهو تفسير كما ترون يناسب المقام . وكان تفسيري لها أنها ترمز الى « الأميبا » ذلك الحيوان المجهري المؤلف من خليّة واحدة ، الذي يقال إن الحياة بدأت به على سطح الأرض . وقد رسمت هنا لتذكر الانسان العظيم بحقارة أصله ، فلا تتطاول أمة على أخرى ولا فرد على آخر ، ولنقول للجبابرة : إن أسلحتكم ستفنيكم وتفني البشرية معكم ، فتعود الأرض كما كانت في أول الخليقة خالية خاوية لتبدأ عليها الحياة بـ « الأميبا » ، ويقول علم « الجيولجيا » : إن الحيوانات التي سادت الأرض ، لضخامتها وقوتها في عصور ما قبل التاريخ ، انقرضت بسبب هذه الضخامة والقوة بالذات ، فهل يعمل العقل البشري على إفناء الجنس البشري ؟ ذلك أمر سيكشفه المستقبل !

استغرقت رحلتي أربعة أشهر ، قطعت خلالها ما يزيد على عشرة آلاف ميل ، وزرت الكثير من الجامعات والمدارس المهنية والثانوية والابتدائية وبعض المكتبات العامة والجامعية وعدداً من المباني التذكارية ومعملين مهمين وهما معمل فورد للسيارات في « ديترويت » ومعمل « سجائر جسترفيلد » في « نورث كارولاينا » . ولقد حاولت أن أكدس أكثر ما يمكن من مشاهدات في هذا الزمن اليسير . على أن ما رأيته قليل جداً بالقياس الى ما هو موجود ، فالولايات المتحدة تكاد تكون وحدها قارة عظيمة ، وليس في وسع إنسان ما أن يشاهد حتى أهم ما فيها في مثل هذا الزمن القصير ، وقد تكونت في نفسي انطباعات كثيرة يصعب عليّ أن أترجم عنها جميعاً بسبب ضيق الوقت ، على أن ما لايدرك كله لا يترك بعضه .

في الوسع تسمية الشعب الأمريكي بأنه « كوكتيل » شعوب ، ذلك أنه مؤلف من

جميع أمم الأرض تقريباً ، وتتمثل فيه جميع الأشكال والألوان من الأسود الفاحم الى الأبيض الشفاف . ومع أن هذه الشعوب ليست ممثلة بما يتناسب وتعدادها خارج أمريكة ، الا أنها ممثلة بعددٍ ما ، قلّ أو كثر ، كما أن فيها أقواماً هم سكانها الأصليون ويدعون الهنود الحمر ، وهذه الأقوامُ تمتزج بالتدريج وتتفاعل ليحصل منها شعب واحد منسجم متماسك . ومع أن الجنسَ الأسودَ لا يزال فى عزلة أوشبه عزلة ، إلا أن القوانين الجديدة التي بدأت تشرعها بعض الولايات تحارب النعرات العرقية وتساوي بين البيض والسود . وأعتقد أن ذلك سيسري مع الزمن الى بقية الولايات ، وربما حدث ذلك ببطء شديد ؛ لأن الانسان — حتى فى الولايات المتحدة — بطيء التطور فيما يتعلق بعقائده وعاداته الموروثة . واذا كان من السهل على الفرد أو المجموع أن يتقبل مبتدعات الحضارة المادية ، لما يرى فيها من فوائد محسوسة ، فهو عنيد فيما يتعلق بتحرير فكره من الآراء التي اصطلحت عليها الأجيال الماضية وان ثبت له بطلانها . وكم قاست البشرية ولا تزال تقاسي من ويلات بسبب هذا العناد الفكري . على أن التميز العنصري بين البيض والسود فى أمريكة أمر مصيره الى الزوال عاجلاً أو آجلاً .

ومع أن الأمريكيين لاينحدرون من أصل واحد ، إلا أنهم يعملون يداً واحدة فيما يتعلق بمصالح بلادهم والدفاع عنها ، بخلاف بعض الشعوب التي تربط بين أفرادها وأقطارها روابط أساسية لغوية ودينية وتاريخية واقتصادية ، ومع ذلك نجدها متفرقة أيادي سبأ . أما الأمريكي ، فمهما كان لونه أو أصله ، فهو يعتز باستقلاله ويتباهى بجنسيته الأمريكية أو بكونه مواطناً أمريكياً . وإنك لتجد العلم الأمريكي معلقاً على أبواب الفنادق وفى أماكن كثيرة بمناسبة وبلا مناسبة ، كما تجد فى « واشنطن » مثلاً شارعاً يسمى « شارع الاستقلال » ، وآخر « شارع الدستور » ، ذلك عدا المباني الفخمة والنصب التذكارية الشاهقة والتماثيل العظيمة الرائعة لتخليد أبطال الحرية والاستقلال ، أولئك الذين أسسوا هذه الدولة وبنوا مجدها وصانوا وحدتها . وكتب التاريخ تؤكد دائماً على سيرهم الملهمة وأفعالهم المجيدة .

يعجب الأمريكي أن يذكرك دائماً بأنك فى بلد حر ، وهو يكرر عليك قوله « This is a free country » . والحقيقة أن الحريات كافةً تمارس فى هذا البلد الا فيما

يتعلق بالمبدأ الشيوعي . وانني أرى أن الولايات المتحدة لو فتحت الأبواب على مصراعيها أمام هذا المبدأ ، فهو لا يمكن أن يخطو خطوة واحدة موفقة الى داخلها ، ذلك أن الحالة السائدة فيها الآن لا تشابه بوجه من الوجوه حالة روسية القيصرية ، أو حالة الصين قبيل نشوب الثورة الشيوعية فيها . فالشيوعية إنما تجد تربة خصبة في بلاد الفقر والجوع والاستغلال حيث تنمو وتترعرع . ولكنها لا يمكن أن تنتشر في بلد يعيش عامله وفلاحه عيشة السادة المرفهين . فبيت العامل والفلاح في المناطق التي زرتها ، منار بالكهرباء ومجهز بالماء النقي الحار والبارد مع تلفزيون أو راديو أو كليهما وسيارة تنتظره على الباب أو في « الكراج » وثلاجة ، ويملك بعضهم بالاضافة الى ذلك آلة لغسل الملابس وأخرى لغسل الآنية ، وجلهم ان لم يكن كلهم مؤمّن حياته وحياة أفراد أسرته ضد الطوارىء والمرض والبطالة والموت وغيرها ، والأجور وافرة ، ولو لا ذلك لما استطاعوا أن ينعموا بهذه العيشة الرفيهة ، فمن مصلحة هؤلاء الناس الاحتفاظ بالوضع الراهن . ولم نسمع أن بلداً آخر ضمن لأكثرية سكانه عيشة أفضل من هذه وأرفه . أضف إلى ذلك أن القوم يكرهون « الدكتاتورية » وكل نوع من الحكم ينطوي على « الدكتاتورية » ، وهم لا يتسامحون بهذا الشأن في داخل بلادهم أبداً .

رب سائل يقول : اذا كان الأمر كما ذكرت ، فلماذا إذن حرمت الشيوعية هناك ؟ ولماذا تكافح بعنف وشدة ؟ والجواب أن ذلك ليس مبنياً على احتمال اقبال الناس عليها ، بل حذراً مما يمكن أن يقوم به معتنقو المذهب الشيوعي على قلتهم من أعمال تدميرية عند وقوع حرب بين الجبهتين الشرقية والغربية . وهو نفس المبدأ الذي سارت عليه روسية تجاه ألمانية النازية قبيل الحرب العالمية الأخيرة ، ولا تزال تسير عليه الآن تجاه الدول غير الشيوعية . وبالرغم من هذا الانقسام العالمي الى معسكرين ، وجدت رجال التربية الأمريكيين يحاولون محاولة جدية أن يربوا أبناءهم لا على المواطنة الأمريكية ، بل على المواطنة العالمية كما صرّح لي بعضهم بذلك . ففي الكثير من الكليات ـ حتى الهندسية والزراعية منها ـ يصرّون على تدريس تأريخ الحضارة لبيان ما قام به كل شعب من أعمال مشرفة في بنيانها ، كما يدرسون موضوعات اجتماعية أخرى لمعرفة العلاقات الإنسانية ، فهم على ما يلوح لي يستهدفون وحدة عالمية على وفق أسس جديدة .

ولديهم رجال منتشرون الآن في جميع جهات العالم يدرسون وينقبون ، واذا ما عادوا ألفوا الكتب وألقوا المحاضرات عن مشاهداتهم . وقد حضرت في « أسْتن تكساس » ناديًا « للروتاري » ، وكان المتحدث فيه قد زار الباكستان ، فاستعرض أوضاعها ومشكلاتها الداخلية والخارجية استعراض خبير .

يمتاز الأمريكي بروحه المرحة ، وحبه للنكتة . وقد يظهر لك ساذجاً يصدق كل ما تقوله ، والحقيقة أنه ثاقب الفكر بعيد النظر ، على أنه أميل الى تصديق ما يجهله اذا كان ضمن نطاق المعقول . وهو رجل عملي ، يقبل على العمل ، ويمارسه بشوق ورغبة ، ويتباهى بصنع يديه . رأيت سيداً أمريكياً ، وهو مهندس كهربائي ناجح ويعد ثرياً بالقياس الأمريكي لا بمقياسنا فقط ، هذا الرجل وزوجه وأخو زوجه وهو مهندس معماري اشتغلوا وحدهم بإنشاء دار واسعة في الريف ، ولم يشركوا معهم في العمل الذي استغرق إنشاؤه ثلاث سنوات أحداً . وأترك لخيالكم ما يتقوله الناس في بلادنا لو أن أحد « البيكات » أو « الأفندية » اشتغل هو وزوجه وأحد ذوي قرابته بإنشاء دار له ، وقد يكون هذا « الأفندي » أو « البيك » فقيراً بالقياس الى هذا الأمريكي الذي ذكرته . كذلك رأيت أستاذاً جليل القدر عالي المكانة ، قد استحضر في بيته ما يخطر بالبال وما لا يخطر من أدوات النجارة ليشتغل بها في أوقات فراغه أو في أيام عطلته ، وقد بدأ عمله بتسقيف غرفة النجارة نفسها ، وقال : إن هذه يدخرها لأيام تقاعده . وفي البيوت التي دعيت اليها لم أجد خادماً أو طباخاً ، بل كانت جميع أعمال المنزل تقوم بها ربة البيت ، ويساعدها الزوج والأولاد . وقد وجدت القوم والحق يقال يعتنون بضيوفهم عناية فائقة (مما يدل على شيمة الكرم عندهم ، أو عند من دعاني لضيافته على الأقل) .

أما في ميدان الاقتصاد ، فالأمريكي حرّ في ممارسة أيّ عمل يشاء ضمن القانون ، وله أن يربح أرباحاً طائلة لا حدود لها ، على أن دخله اذا زاد على حد معين يبدأ بدفع ضريبة متصاعدة عنه تتجاوز في بعض الأحوال ال ٩٠٪ من الدخل ، وهي ضريبة ثقيلة ، ولكن قلما يستطيع الإفلات منها أحد . ففي الوقت الذي يشجعون فيه الإبداع الذاتي والإقدام على العمل الحر والربح الطائل ، تراهم يعملون على المحافظة على التوازن الاقتصادي ، فيأخذون ممن

عندهم ليرفهوا عمن ليس عندهم بواسطة المشروعات العامة والمؤسسات المجانية ، والمال الذي يتبرع به كبار المتمولين لمشروعات خيرية يعفى من ضريبة الدخل المذكورة . وقد ساق هذا المبدأ عدداً كبيراً من أصحاب الدخل العظيم أن يساهموا بمشروعات خيرية ضخمة يعود نفعها الى الناس عامة بمبالغ خيالية .

فى معظم الجامعات أبنية ضخمة تحمل أسماء الذين تبرعوا بانشائها من أموالهم الخاصة ، ويصح مثل هذا القول عن المستشفيات والملاجىء ومراكز البحث العلمي ، بل إن قسماً من الحدائق العامة و « الباركات » تبرع بها ملاكوها خدمة لمدينتهم وترفيهاً عنها . والولايات المتحدة الأمريكية ، بلاد صناعية لا نظير لها فى العالم . ولأضرب لكم مثالين من مشاهداتي : دخلت معمل « سجائر جستر فيلد » ، وهو من المعامل الحديثة ، فوجدت العامل فيه يتفرج أكثر مما يعمل ، ذلك أن العمل إنما تقوم به « المكائن » ، وهو يشرف عليها . يشتغل فى هذا المعمل ١٫٨٠٠ عامل ، و « ماكينة » تلف « السجائر » وتقصها وتتدفق هذه منها كما يتدفق الماء من حنفية دون انقطاع ، ثم تنتقل هذه « السجائر » بصورة « أوتوماتيكية » الى « ماكينة » أخرى تعبئها ، كل ٢٠ سجارة فى علبة ، وتلصق عليها ورقة المكس ، ثم تقوم « مكائن » أخرى بوضعها في صناديق أكبر ، ثم تخرج من المعمل على شريط سيار ينقلها رأساً الى سيارات النقل . ويكفي دليلاً على ضخامة إنتاج هذا المعمل أنه يدفع فى كل يوم ما معدله مليون دولار مكساً للحكومة عن « السجائر » التي ينتجها .

أما المعمل الثاني ، فهو معمل « فُورْدْ » فى مدينة « ديترويت » . ولفورد معامل في أماكن أخرى . ولا شك أن معظمكم قد قرأ وصف هذا المعمل فى مجلة أو كتاب ، ولكن الخبر ليس كالعيان ، إذ فيه من الآلات ما يدهش العقل . فهذه المطرقة التي تفتت الصخر الحديدي يبلغ وزنها عشرين طناً ، وتلك « الماكينة » تقص الحديد كما يقص الطفل قطعة من الورق ، وثانية تغير هيأته وشكله كأنه قطعة من العجين وليس من الحديد . ويُخرج هذا المعمل في كل يوم ٦٣٥ سيارة ، يبدأ بها من المعدن الخام حتى تدرج على عجلات أربع . ويتبين لكم مدى « التصنيع » العظيم الذي بلغته هذه البلاد اذا علمتم أنها تشغل ٢٠٪ من سطح الكرة الأرضية

وتؤلف ٧٠/. من مجموع سكان الدنيا ، ولكنها تستعمل ٥٠/. من مجموع المواد الأولية المستخرجة فى العالم . ومما يساعد على تقوية الصناعة وزيادة الانتاج ، العمل على تشجيع الابداع والاختراع وتحسين الأشياء ، فهم حكومة وشعباً يساهمون في بذل الأموال الطائلة للبحوث الصناعية والعلمية ، ولا تخلو جامعة محترمة أو شركة كبرى من مؤسسات تابعة لها متفرغة للبحث العلمي ، ذلك بالإضافة الى ما تجريه بعض الدوائر الحكومية المختصة من بحوث سرية وعلنية .

تذهب الى بعض المخازن فتجد الأبواب تفتح أمامك دون أن تمسها يد ، كأن الجن قد فتحتها ، وقد تكون في غرفة فترى آلة طابعة تشتغل وتطبع دون أن يراقبها إنسان . وهذه الآلة تسمى « التيلتايب » ، وهي تطبع الكلمات التي يطبعها شخص ما على آلة طابعة أخرى قد تبعد عنها مئات أو ألوفاً من الأميال ، وهي أحياناً تثقب شريطاً اذا وضعته فى آلة « اللينوتايب » صبت حروفه « أوتوماتيكياً » ورتبتها بحيث تكون جاهزة للطبع .

إن اختراع « التلفزيون » أثر فى الاقبال على « السنما » . ولكن شركات « السنما » لم تقف مكتوفة الأيدي ، فقد اخترعوا حديثاً نوعاً جديداً من « السنما » سموه « السنراما » ، والمتفرج لا يشعر أن شريط الصور يمر من أمامه ، بل يشعر كأنه هو المتحرك ، وتتغير المناظر أمامه بسبب حركته هو كما يشعر راكب السيارة أو الطيارة أو السفينة . وهذا الاختراع لايزال فى أولى مراحله ، فكيف به اذا تكامل ؟ والحقيقة أنك حيثما سرت وأنى نظرت ، وجدت علائم التجدد والابداع والتحسين ، فناطحات السحاب ابداع فى فن البناء ، والطرق التي لا تتقاطع على مستوى واحد ابداع فى فن انشاء الطرق وتنظيم السير . ولك أن تقول مثل ذلك عن الأثاث البيتية والأقمشة والملابس وغيرها .

ومن أعجب ما شاهدته ، كيفية نقل الكتب في مكتبة الكونكرس . تتألف هذه المكتبة من بنايتين عظيمتين تضمان ما يزيد على ١٢ مليون كتاب ، وتصل بين البنايتين أنابيب معدنية ضخمة تمتد في أقبية تحت الأرض ، وتنقل الكتب من بناء الى آخر ضمن هذه الأنابيب وبقوة ضغط الهواء فتصل كلمح البصر ، ولولا ذلك لاستحالت تلبية طلبات الألوف من القراء . والواقع أن هذه الاختراعات والبحوث العلمية التطبيقية ، أدت الى ازدياد الرفاه وارتفاع مستوى

المعيشة ، فقد توصلوا مثلاً بنتيجة البحث العلمي أن يولدوا أبقاراً تحلب الواحدة منها معدل ١٠٠ رطل (باوند) يومياً ، وتفلّ في السنة زهاء ٦٠٠ رطل من الزبد ، كذلك توصلوا بطريقة التغذية الخاصة أن يجعلوا الثور يزن وهو في عمر سنتين ما يزنه اذا بلغ أربع سنوات من العمر بالتغذية الاعتيادية . أما الدجاج ، فيجري تفريخه بالأفران الكهربائية . وقد أخبرني أحد المشتغلين أنه ينتج في السنة ثلاثة أرباع مليون دجاجة . ولا يسرح الفرخ قبل تلقيحه ضد أمراض الدجاج الوافدة ، ويُعلَّق على جناح كل فرخ تأريخ ميلاده والنوع الذي ينتمي اليه .

أما في ميدان الزراعة ، فحرث الأرض ، وزرع البذور ، والتسميدُ ، والسقيُ ، والحصادُ ، والتصفيةُ ، والطحنُ ، والخبزُ ، كل ذلك يجري بقوة « الماكينة » . أما الرز ، فيزرع على مرحلة واحدة ، ويبذر بواسطة طائرة « الهليوكوبتر » ، وأماكن زرعه ليست موبوءة بـ « الملاريا » كمناطق زراعة الشلب في العراق . وقد رجوت من أحد طلابنا الذين يدرسون الزراعة في كلية ليست بعيدة عن هذه المناطق أن يكتب أطروحته عن زراعة الشلب ، لعله اذا عاد يتمكنُ من خدمة بلاده بتغيير طريقة زرعه ، فينقذ الآلاف من الناس من الأوبئة والأمراض ومن الأعمال الشاقة المؤبدة .

بمثل هذه التجارب وبمثل هذه الوسائل ، أمكنهم أن يوفروا للسكان الرفاه والغذاء الكامل ، وأن يقلصوا عدد الفلاحين ، فتزداد الأيدي العاملة في الحقول الصناعية .

* * *

لا بد لي في حديثي أن أتطرق الى أمور ثلاثة :

أولها ، تقصير العرب في الدعاية لأنفسهم .

وثانيها ، نبذة عن نظم التعليم ، وأهمية التعليم الجامعي .

وثالثها ، حالة الطلبة العراقيين هناك .

ومع أن كلاً من هذه الأمور يتطلب بحد ذاته أكثر من حديث واحد ، فسأختصر الكلام ما وسعني ذلك .

(١) إن البلاد العربية ونهضتها الحديثة وحقّها في الحياة وكفاحها لنيل مكانتها الطبيعية

بين الأمم المستقلة ، مجهول لدى الغالبية العظمى من الأمريكيين ، حتى الطبقة المثقفة منهم . والتقصير إنما يقع على عاتق العرب أنفسهم . وأرى أن يتلافى ذلك بأن تقوم بعض الدول العربية أو الجامعة العربية بالوسائل الآتية :

(أ) أن توضع كتب باللغة الانكليزية عن البلاد العربية ، وأن تهدى هذه الكتب الى مكتبات الجامعات والكليات والمؤسسات التي تعنى بالشرق الأوسط والمكتبات العامة والمتاحف ، فالكتب أخلد على الزمن من المقالات التي تكتب في الجرائد اليومية ، كما أنها مرجع للباحثين والمؤلفين يثقون به أكثر من ثقتهم بالمقالات العابرة .

إن معظم ما ألف من كتب باللغة الانكليزية عن البلاد العربية إنما كتب بأقلام أجنبية ، وما أندر ما كتب بأيد عربية ! والحقيقة أن ما ألفه الغربيون عن العرب من كتب في العصور المتأخرة يزيد كثيراً عما كتبه العرب عن أنفسهم حتى بلغتهم ، وأكثر من ذلك أصبحت مؤلفاتهم مراجع للمؤلفين العرب أنفسهم ! ولا حجة لنا الآن بعد أن ازدادت الطبقة المثقفة الواعية ، فمن الواجب أن نعرف أنفسنا للغرب بلغات الغرب ، إذ أن للغرب تأثيراً عظيماً على سياسة العالم شئنا أو أبينا ، فلديه القوى « الميكانيكية » ولديه السلاح ولديه العلم . ولا يستطيع الايمان بعدالة قضايانا وكتابة المقالات النارية ونظم الشعر وحدها ايصالنا الى حقوقنا المشروعة ، بل علينا بالإضافة الى ايماننا ومقالاتنا وأشعارنا أن نعمل بصمت وهدوء لاقتباس هذه القوى « الميكانيكية » الهائلة والسلاح والعلم كما فعلت اليابان ، فاذ ذاك فقط يكون لنا وزن ثقيل في السياسة العالمية . وإننا حتى لو بلغنا هذه المرحلة ، فلا غنى لنا عن تعريف أنفسنا للعالم خارج بلادنا ، وألا نترك ذلك العالم يعمل وحده على فهمنا ووضع الكتب عنا ، فقد يسيء فهم الكثير مما نعتز به من عادات وتقاليد لها قيمتها الانسانية ، ليس بالقياس الينا وحدنا ، بل بالقياس الى المجتمع البشري عامة ، وفي الوسع اذ ذاك أن نسير في هذا العالم بشكل مشرف .

(ب) أن توضع « أفلام » سينمائية ناطقة ملونة عن نهضة العرب وتأريخهم وخدماتهم الجليلة للحضارة وغير ذلك مما تقتضيه المصلحة ، وأن توزع هذه الأفلام على السفارات والمفوضيات كما يبعث بها الى الجامعات التي فيها طلاب من العرب ، لتعرض في المناسبات التي تستدعي ذلك ،

وهذا العمل فضلاً عما فيه من دعاية حسنة ، يربط الطلبة ببلادهم ، ويوثق صلتهم بها .

(٢) لا يوجد نظام موحد لمراحل التعليم في الولايات المتحدة ، فلكل ولاية تنظيماتها الخاصة ، ولكل مدرسة طريقتها في تنظيم مناهجها وإقرار الكتب التي ترغب في تدريسها ، وتقوم الحكومة المركزية بجمع المعلومات التربويه وما يستجد من آراء وتجارب في التعليم وأساليبه ، وتوزعها على الولايات جميعاً للاستفادة منها . ويناهز عدد الطلبة في مراحل التعليم كافة ٣١ مليوناً . أما تكاليفه فتبلغ زهاء ٧٫٠٠٠ مليون دولار تتعاون على دفعها الحكومة المركزية وحكومات الولايات والادارات المحلية والأهلون بما يمنحونه من أجور وتبرعات أو أوقاف دائمة .

ويعد حق الطفل في التعلم من الحقوق الطبيعية التي لا مناص منها ، ويجب أن تتظافر جميع القوى على تهيئة الوسائل الضامنة لتعليم جميع الأطفال بصرف النظر عن مكانة أسرهم الاقتصادية والاجتماعية . ومدة التعليم الالزامي تتراوح من ثماني سنوات الى اثنتي عشرة سنة على حسب التشريع المعمول به في كل ولاية ، وفي معظمها مدته تسع سنوات ، ومعدل كلفة الطالب السنوية في هذه المرحلة تناهز ٢٠٠ دولار ، أي ما يزيد على ال ٧٠ ديناراً ، ولا يدخل في هذا الحساب تكاليف المنشآت الثابتة كالمباني الدراسية والأقسام الداخلية والمكتبات والمختبرات وساحات الألعاب والأثاث . يقابل ذلك في العراق ما لا يزيد عن الخمسة عشر ديناراً ، ومثل هذا الرخص يؤدي الى النتائج الرخيصة التي نشكو منها . ومدة الدراسة الابتدائية ست سنوات أو ثماني سنوات . وفي الحالة الأولى تكون مدة الدراسة الثانوية ست سنوات تعطى على مرحلة واحدة ، وأحياناً تُقسَّم الى مرحلتين طول كل منها ثلاثُ سنوات ، وفي الحالة الثانية تكون مدة الدراسة الثانوية أربع سنوات تعطى على مرحلة واحدة ، أي أن مجموع الدراستين الابتدائية والثانوية يبلغ اثني عشر عاماً .

وقد لاحظت في المدارس الابتدائية التي زرتها أنهم يقسمون فترة الصباح الى دورتين ، أمد كل منها ساعة ونصف ، وبعد الظهر دورة ثالثة مثلها ، والمعلمة لا تتقيد بتدريس موضوع واحد

خلال الدورة ، بل قد تدرس مجموعة من الموضوعات المترابطة . ويتوخون فى التدريس الابتدائي مساعدة الطفل على النمو بجسم صحيح وعقل سليم وعواطف متزنة ، وتوجيهه ، ليكون قادراً على الاستفادة الفعالة من وسائل التعلم كالقراءة والكتابة والتفكير والتحليل ، وقادراً على حسن المعاشرة والطاقة على فهم مشكلاته الشخصية والاجتماعية ومعالجتها مع تنمية « أولاعه » الابداعية والتقدم به لفهم محيطه الطبيعي والاجتماعي ، وليفهم أخيراً معنى « الديمقراطية » كما يطبق فى مختلف نواحي الحياة .

أما الدراسة الثانوية ، فتستهدف بالاضافة الى ذلك معرفة الطرق العلمية ، وأهمية العلم فى الحياة ، والتدرب العملي ، والاستعداد للحصول على عمل فى المجتمع والاحتفاظ به ، مع حسن تقدير للقيم الخلقية وللجمال الطبيعي والفني ، وأن يهيأ ليكون عضواً نافعاً في الأسرة .

وقد تدهشون اذا قلت لكم : إن مجموع الموضوعات النظرية والعملية التى تعطى فى الثانويات ، تبلغ ٢٧٤ موضوعاً مختلفاً ، يختار الطالب منها ما يروقه . ومن البديهي أن هـذه المجموعة لا تدرس فى مدرسة واحدة ، بل هي موزعة بين جميع المدارس الثانوية ، تدرس كل منها ما يناسب حاجات محيطها ، على أنه فى منهج كل طالب ما لا يتجاوز ٥٠ ٪ من الدروس الاجبارية ، على أن يختار الباقي بحسب قابلياته وبارشاد مدرسيه .

والعناية بالتعليم المهني عظيمه ؛ لأن الحاجة اليه شديدة ، ولأنه يفتح أبواب العمل والكسب أمام الشباب . وقد وجدت الانسجام وثيقاً بين المدرسة وحاجات المجتمع المحيط بها ، وفى المدارس الكبرى من هذا النوع من « المكائن » والعُدد ووسائل التدريب ما يبلغ ثمنه ملايين من الدولارات ، وبعض الشركات الصناعية الكبرى تهدي أحدث أنواع « المكائن » ليتدرب الطلاب عليها لتستخدمهم بعد ذلك عندها ، ولرجال الأعمال دخل كبير فى تنظيم مناهج هذه المدارس ، فهم إن لم يكونوا من ضمن الهيأة المشرفة فلا أقل من أن يزوروا المدرسة ويعرّفوا المدير وهيأة التدريس والتدريب بنوع العامل الذي يريدونه ، وهم يفاوضون الطلبة الذين سيتخرجون للعمل عندهم . ولا يعين للتدريس فى هذه المدارس إلا من تخرج فى مدرسة للفنون الصناعية بدرجة B. A. ثم مارس العمل بنجاح فى أحد المعامل مدةً لا تقل عن أربع سنوات .

على أن الكثير من هؤلاء يفضلون البقاء في المعامل ، لما يدرّه عليهم ذلك من أجر وافر . ويشتغلون بالتدريس كعمل إضافي يتقاضون عليه أجراً آخر . ففي زيارتي لإحدى المدارس ، وجدت صفوف الكهرباء « والميكانيك » و « الألكترونكس » ، وهي التي تعلم « الراديو » و « الرادار » وأضرابها ، فارغة ، وقيل لي : إن الموظف المسؤول عن التدريس لا يحضر صباحاً ، لأنه يشتغل في أحد المعامل ، مما اضطرهم الى جعل الدروس مسائية بسبب ندرة المختصين القديرين في مثل هذه الفروع وشدة الاقبال عليهم . وهذه المدارس تقبل الأعمال الخارجية وخاصةً ما يخرج عن المألوف منها . فتشحيم السيارات مثلاً أمر سهل ، في وسع الطالب أن يتعلمه أنى شاء . أما السيارة التي أصابها عطب كبير أو خلل في أجزائها الداخلية الحساسة ، فأمر لا يحدث كل يوم . وهذا النوع من العمل هو الذي يفضلونه . وما يزيد على نصف طلبة المدارس الثانوية ، يقبلون على دراسة المهن الصناعية والزراعية والتجارية والفنون المنزلية .

وتبدأ مرحلة التعليم العالي بعد انتهاء الطالب من دراسة اثنتي عشرة سنة في التعليمين الابتدائي والثانوي ، ويبلغ عدد المعاهد العالية في الولايات المتحدة زهاء ١٫٨٦٠ معهداً معترفاً به ، تضم زهاء ٣ ملايين طالب وطالبة ، والدراسة في معظمها مختلطة بين البنين والبنات ، ويصل عدد الطلاب في بعضها الى حدود ٥٠ ألف طالب ، ونسبة عدد الطلبة في المعاهد العالية الى مجموع السكان تقرب من ٢ ٪ أما في العراق فهي ١ في الألف ، أي أن عدد طلبة هذه المعاهد في العراق يجب أن يكون ٢٠ ضعفاً لتصبح نسبتهم ٢ ٪ كالنسبة في الولايات المتحدة .

وتعامل المعاهد العالية بسخاء عظيم ، وان شكا بعضها من قلة المال . فهذه « جامعة بيركلي » مثلاً ، تبلغ ميزانيتها ٥٢ مليون دولار لتسيير دفة الأعمال فقط ، مع ثمانية ملايين دولار أخرى لإنشاء بعض المباني . ويبلغ عدد طلابها ٣٤ ألف طالب . وعلى ذلك فان كلفة الطالب الواحد تتجاوز ١٥٠٠ دولار في السنة أي ما يزيد ٥٠٠ دينار ، ولا تدخل في هذا الحساب كلفة الأموال غير المنقولة التي شيدتها الجامعة أو تقوم بتشييدها .

واليكم نموذجاً آخر : « جامعة ميريلاند » التي تبلغ ميزانيتها ٢٠ مليون و ٤٠٠ ألف دولار ، وعدد طلبتها اثنا عشر ألفاً بين مسائي ونهاري ، أي أن كلفة الطالب الواحد تتجاوز ١٫٧٠٠

دولار في السنة، وتبلغ مساحة أرضها وحقولها زهاء ١٫٧٠٠ فدان ، أي زهاء ثلاثة آلاف مشارة . وكلية الزراعة في هذه الجامعة تشرف على الأعمال الزراعية في جميع ولاية « ميريلاند » ، أي أنها تقوم مقام وزارة الزراعة عندنا ، فهي المسؤولة عن تأسيس الحقول التجريبية وارشاد الفلاحين وتنظيم شؤون الزراعة ، وهي ناجحة في مهمتها أكثر من نجاح بعض الدول التي لها وزارة زراعة .

وفي المراحل الأولى من التعليم الجامعي ، تختلف مناهج التدريس في الجامعات الانكليزية عن مثيلاتها في الجامعات الأمريكية . ففي انكلترة يؤكدون في هذه المرحلة على المواد التي تقع ضمن الاختصاص الذي يرغب الطالب في دراسته . فاذا أراد الطالب أن يتخصص بأحد فروع الهندسة أو الزراعة أو الكيمياء ، فان المادة الدراسية تكون جميعاً ذات علاقة مباشرة بالاختصاص ، أي أنها جزء منه أو أنها ضرورية لفهمه . أما في الولايات المتحدة ، فعلى الطالب في هذه المرحلة أن يدرس عدداً من الموضوعات الاجتماعية كتأريخ الحضارة أو الاقتصاد أو غيره أحياناً وإن لم يكن لهذا كله علاقة باختصاصه ، ويرون أن ذلك يوسع أفق الطالب الاجتماعي ، ويسهل اندماجه في المجتمع ، ويجعل منه مواطناً أوسع معرفة بعلاقات البشر وأقدر على السلوك فيها .

وتمتاز معاهد التعليم العالي في الولايات المتحدة وفي أوربة أيضاً بعنايتها الخاصة بأمرين : الأول نشر المعارف الموثقة عن الأمور التي يحتاجها المحيط ، وبالتعاون مع ذوي الخبرة والرأي من أصحاب الأعمال فيه . والآخر تأكيدها ـ في المراحل الأخيرة من التعليم العالي ـ على البحث العلمي ، والكشف عن حقائق جديدة مجهولة واستخدامها إن أمكن ، أو تثبيتها ليستفيد منها الباحثون الآخرون .

وتتجلى روح الخدمة الصادقة والانسانية العاملة الشريفة لدى هؤلاء العلماء والباحثين ، وكثير منهم يتزلون عن مصالحهم الخاصة وعن المنافع التي يمكن أن يجنوها لمصلحة المجموع . وقد رأيت بعضهم يجلس الى ما بعد منتصف الليل . وقيل لي إنهم يستمرون أحياناً الى الصبح ، يترقبون نتيجة تجربة يقومون بها .

والحقيقة أن حضارة أمريكة العظيمة إنما تقوم على أكتاف هؤلاء وبعقولهم الجبارة وصبرهم وجلدهم على العمل . فعالم واحد قد يؤدي للحضارة من الخدمات ما يعجز عنه ألوف من البشر ، واكتشاف مهم واحد قد يقوم مقام الجيوش الجرارة . ومن المؤسف امكان استغلال اكتشافات هذه العقول النيرة في التطاحن السياسي للدمار بدلاً من أن تكون عاملاً مرفهاً للانسانية بأسرها .

لا يوجد نظام موحد للجامعات ، بل هي كلها حرة في الخطة التي تضعها والمناهج التي تطبقها ، والكليات الحكومية وتسمى State colléges or uni أو Sand grant college or uni ، وتعنى كلها بالموضوعات والبحوث الهندسية والزراعية على اختلاف أنواعها من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، ولكنها تؤكد كثيراً على الناحية الأخيرة . ومعظمها تصل الدراسة فيه الى مرحلة « الدكتوراه » .

وفي مرحلة ما بعد الـ B . A ، وتسمى graduate Study أو Post gra. study ، تختلف الجامعات قوة وضعفاً في موضوع ما من الموضوعات أو في دائرة من الدوائر العلمية بحسب قوة الأساتذة القائمين على التدريس فيها وضعفهم ، فجامعة « هرفرد » مثلاً اشتهرت بدراسة القانون ، ذلك لأنها تختار أحسن الأساتذة ولا تبخل في سبيل ذلك بشيء ، وجامعات وكليات أخرى اشتهرت بعنايتها بالزراعة أو الهندسة أو التجارة أو غيرها ، وقليل عدد الجامعات التي اشتهرت بمعظم هذه النواحي في وقت واحد .

وفي جميع الكليات والجامعات التي زرتها ، وجدت المختبرات غنية جداً بالآلات و « المكائن » والمواد ، وبعضها مصنوع في الجامعة نفسها من قبل الطلاب ، ذلك عدا ما يأتي عن طريق التبرعات أو من الميزانية السخية .

(٣) ويسرني بهذه المناسبة أن أبين أن حالة الطلبة العراقيين هناك جيدة للغاية ، فالقوم هناك يعتنون بالغريب ، وفي كل جامعة زرتها وجدت أستاذاً متفرغاً لإرشاد الطلبة الأجانب ونصحهم وحل مشكلاتهم وتوجيههم الى ما فيه الخير لأنفسهم وبلادهم . ومعظم الطلبة ناجحون . وقد تمكن القسم الأعظم منهم أن يوفق نفسه للمحيط الجديد . واذا تذكرنا أن عدد الطلبة يتباهز

الـ ٨٠٠ ، وجب ألا نستكثر وقوع بعض الحوادث الخارجة عن المألوف .

ويمكن إرجاع مشكلات الطلبة الى أمرين :

الأول ـ أن معظم من أرسل من الطلبة حتى الآن ، كان من خريجي المدارس الثانوية ، لم يكمل بعد نضجه النفسي والعاطفي . والطفرة بمثل هؤلاء من محيط بلادهم الى محيط آخر يختلف كل الاختلاف بطبائعه وعاداته وأساليب حياته ، يؤدي أحياناً الى ضرر مادي أو معنوي . فبعضهم مثلاً لا يعرف كيف يتصرف تصرفاً حكيماً برواتبه ، فيستدين ، ثم يماطل في الدين ، وبعضهم يقع فى مآزق عاطفية ويتمنى لو كان فى وسعه أن يعالجها على غير الأسلوب الذي تعالج به الأمور هناك . وقد أخبرت أن اثنين حاولا الغش فى الامتحان ، ولكنهما بعد ذلك تابا وعملا صالحاً . وروى لي أستاذ أن أحد الطلبة كان يبصق حيثما يروقه ، ولم يترك هذه العادة الا بعد أن رفض الطلبة الآخرون قبوله فى عرفهم . وقد تبين لي أنه من الضروري أن يعطى مثل هؤلاء الطلبة دروساً فى أساليب الحياة الصالحة قبل تسفيرهم ، أو أن يقتصر ارسال البعثات على خريجي المعاهد العالية .

الآخر ـ جهل اللغة الانكليزية ، فمستوى دراسة هذه اللغة فى ثانوياتنا لا يكفي لمتابعة دروس جامعية مع طلاب لغتهم البيتيه هي اللغة الانكليزية ، فضلاً عن أن الطالب الأمريكي يدرس اثنتي عشرة سنة قبل التحاقه بالجامعة ، وطالبنا يدرس احدى عشرة سنة فقط ، وكل ذلك مما يجعل عملية الدرس وفهم المحاضرات شاقة قد ينجم عنها إرهاق فكري وخاصة فى المرحلة الأولى من الدراسة الجامعية . وهذا مما يدعو الى تدريس بعض موضوعات الدراسة الثانوية باللغة الإنكليزية بالاضافة الى تدريسها كلغة ، وذلك فى أثناء الدورة التي أشرت اليها .

ويتحلى الأساتذة بروح التعاون والمساعدة للطالب الأجنبي ، فالذي يتأخر أهله عن إرسال رواتبه فى الوقت المعين يقرضونه أحياناً شيئاً من المال لتدبير أمور معاشه ريثما تصل اليه رواتبه . ومع أنه لا يسمح لأجنبي بالعمل فى المعامل الا بأذن خاص ، تجد عدداً من الطلبة الأجانب يشتغلون فى المعامل والمؤسسات الأخرى ، وقد نالوا ذلك بمعاونة أساتذتهم . وفى الأحوال التي اطلعت عليها ، كانت الأجور كافية ليقوم الطالب بأود نفسه ودفع نفقات دراسته ، على أن

الطالب الذي يدرس على هذه الطريقة يحتاج الى وقت أطول لإنجاز تحصيله . ولكنه على كل حال يكتسب خبرة ومراناً اذا كان العمل ينسجم وما يتخصص به ، أو على الأقل يجعله يدرك أن العمل هو الطريق الشريف للحصول على المال . وطلابنا مع استثناءات قليلة يبذلون جهدهم للاستفادة من محيطهم العلمي والعملي ، وأتوقع منهم كل خير للبلاد عند عودتهم بشرط أن يتجنبوا الغرور والاعتقاد بأنهم أصبحوا أنصاف آلهة ، وعليهم أن يتذكروا دائماً بأنهم درسوا على نفقة هذه الأمة حتى من ذهب منهم على حسابه الخاص ، وأنهم تعلموا ليعودوا خدّاماً لقومهم وبلادهم ، لا سادة متحكمين ، وألاّ يستخفوا بآراء الفضلاء الذين لم تتح لهم فرصة الدراسة النظامية ، فقد يوجد بين هؤلاء من يزّهم في أصالة الرأي وسعة الخبرة وقوة الإيمان والقدرة على العمل النافع والاستجابة للتضحية . فليس كل الذين لا يحملون الشهادات العالية قوماً لا يفقهون ، وليس كل من حمل شهادة عالية صار من المنزهين الذين لا يخطئون ، بل ان مجرد الحصول على الشهادة فيه ضرر كبير اذا عقبه خمول فكري وكسل في الانتاج العلمي والعملي ، إذ تصبح الشهادة إذ ذاك لا الكفاية والخلق المتين هي السلاح الذي يشهره صاحبه بوجه المجتمع . وعليهم أن يدركوا أن الشهادة مهما كانت درجتها إنما هي مفتاح للدخول في معترك الحياة ، وأن تحصيل العلم واستخدامه لفائدة المجموع عملية تستمر طوال العمر ، ولكنها تبتدىء بإنجاز الدراسة في المدرسة التي هيأته بعض الشيء لمجابهة الحياة . وعليهم فضلاً عن ذلك أن يتحلّوا بروح التعاون والعمل الجدّي المجدي الصامت ، فلا فائدة ترجى من كثرة الكلام اذا لم يصحبه عمل مثمر نافع . وفي هذه البلاد يجب ألاّ نكتفي بالشكوى من فساد الأحوال ومن حالة التأخر في البلاد ، بل يجب أن نتعاون على إدخال الصناعة وانشاء المعامل وجعل الزراعة على أسس ميكانيكية . فهذه هي التي ترفع مستوى البلاد المعاشي وترفه سكانها . وانني أرجو لهم ولكم وللجميع التوفيق الالهي لخدمة هذا الوطن خدمة صادقة ، كل ضمن نطاق عمله ، وبقدر ما تجود به مواهبه ؟

محيي الدين يوسف